تاريخ استقبال المقال:2015/08/08 تاريخ قبول نشر المقال: 2016/02/03 تاريخ نشر المقال:2016/06/01

إشكالية التحليل السوسيولوجي بين الأنا والأخر

أ. نوال بوحزام
جامعة معسكر الجزائر

ملخص:

إذا انطلقنا من مسألة تأصيلية السوسيولجيا وإرجاعها إلى الظروف الغير سوية وطابع الفوضى التي عاشتها أوربا على حد تعبير مؤسسها **دوركايمي Durkheim** فهذا يعود بنا إلى الحديث عن وجود أزمة فكرية عرفتها هذه المجتمعات وبالتالي فرضت عليها تلك الحتمية الاجتماعية لتفسير وتحليل الواقع الاجتماعي ما أدى إلى إنتاج قواعد منهجية تؤسس لميدان علمي جديد.ومن هذا المنطلق تكمن إشكاليتنا البحثية في مدى تطبيقية هذا العلم بآليته المنهجية والفكرية في فهم واقعنا العربي رغم أسبقية فكر الأخر على واقع الأنا ؟ كما نهدف من خلال هذا المقال إبراز مدى تأثير هذه التبعية في فقدان الهوية السوسيولوجية .

الكلمات المفتاحية: السوسيولوجيا , الإيديولوجيا ,الأنا . الأخر .الهوية السوسيولوجية .

The problem of sociological analysis between the ego and the other

Abstract :

If we set off the socialogical rooting issue and its restoration to the ab normal conditions and the caos that have Eurpoe lived , to the extent expression of its founder **Durkheim** , this make us return to talk about the existance of an intellectual crisis that know these societies . And thus impose on it that social determinism to explain and analyse the social facts that led to produce a methological rules that establish a new scientific field From this promise lie the problematic research in how extent is this science applicated with its methological and intellectuel mechanism to understand our Arabian reality despite the other precedence thought on our reality We also aim through this article to display how extent this dependency has an effect on the lost of the sociological identity .

Keywords:, Sociology, Ideology, The ego and the other, Sociological identity

مقدمة :

تقودنا تحليلاتنا اليوم نحن كمنشغلين في مجال السوسيولوجيا عن معرفة العلاقة بين السوسيولوجيا بالمجتمع وأي رهانات يطرحها هذا العلم وكيف واجه هذه التحولات المجتمعية هل تمكنت السوسيولوجيا من مواجهة تاريخها لقراءة واقعها .كيف تمركزت القاعدة المنهجية في الطرح السوسيولوجي وهل حملت هذه الصورة انعكاسا على تعليمية الدرس السوسيولوجي وكيف واجهت السوسيولوجيا تطور المجتمع وبالتالي نتساءل عن الدور السوسيولوجي وتطور المجتمع ،إذن يعود السؤال وبإلحاح إذا كان الإنتاج السوسيولوجي العربي (الجزائري) قد انعكس فعليا اتجاها إيديولوجيا في علم الاجتماع وهل استطاع أن يبلور قضاياه المجتمعية .

<u>كرونولوجيا علم الاجتماع :</u>

كثيرا ما نجد الكتابات التي حاولت التأريخ لعلم الاجتماع وظهوره عبر التتبع المرحلي من خلال الفترة التأسيسية كعلم قائم بذاته،يقدم تفسير للواقع الاجتماعي ويبني أسس ومرتكزات علمية ومنهجية .فظهور علم الاجتماع يعود إلى السياق التاريخي الاجتماعي الذي عاشته أوربا وهذا ما دعا إلى تجنيد الباحثين من أمثال سبنسر **وأوغست كونت وإيميل دوركايم وسان سيمون** لدراسة المجتمع وظواهره لتحليل الأزمات وهذا ما دعا إلى ظهور هذه الإسهامات في طابعها الأكاديمي وفي إطارها المنهجي ".فالنشأة الحديثة لعلم الاجتماع في الغرب قد واكبها جدل عميق بين علماء الاجتماع حول المناهج والأطر النظرية لهذا العلم ولئن حدد علماء الكلاسيكيون اتجاهات نظرية كبرى إلا أن ذلك لم يبلغ الجدل الدائر حول أهمية هذا العلم وحول دوره في المجتمع » (01) حيث ظهر مصطلح علم الاجتماع مع أوغست كونت (1789-1857) الذي ورث عن أستاذه كلود أنري سان سيمون إرادة تأسيس علم مستقل بذاته يدرس الظواهر الاجتماعية. ويعد إميل دوركايم أول عالم اجتماع يبلور منهجا علميا لعلم الاجتماع من خلال كتابه الشهير "قواعد المنهج في علم الاجتماع" (1895). وهكذا عرف مفهوم علم الاجتماع انتقالات فكرية من تعددية المجال الذي يدرس فيه حيث اعتبر "من العلوم الوضعية الطرح تعتمد على الميدان واختباره في مكانه أي من منطلقات خاصة ونتائجها من قواعد متبعة نتيجة البحوث التي مكنتنا من الإجابة عن متطلبات الموضوع" (02) فالإشكالية المفهوماتية التي طرحها علم الاجتماع دائما ارتباطه بالمنهج مرورا من الفكر الاجتماعي وعلى يد العلامة عبد الرحمن ابن خلدون الذي يعد من مؤسسي هذا العلم أو ما أطلق عليه علم العمران البشري .وهو من حاول وضع جملة الأسس التي جندت فيما بعد بالقواعد المنهجية الدوركايمية .فعلم الاجتماع كما يفهم من خلال هذا المنظور هو تطبيق مناهج البحث والمفاهيم السوسيولوجية لدراسة الظواهر والإشكالات الاجتماعية الناتجة عن التحولات والتغيرات الخاصة بالأنساق المجتمعية . إذن بدأ هذا العلم كتخصص قائم بذاته وبالخصوص بعد تأسيس المدرسة الفرنسية على يد **دوركايم** وكما تم تجنيد مدرسة شيكاغو سنة 1982 وهذا ما دعا إلى انقسام المدرستين في تيارين تيار إمبريقي في اعتماده في تناول المواضيع وتيار نظري هدفه الانتقال من التناول الإشكالي للوصول للحقائق والتفسيرات التي اعتمدت على مؤشرات واقعية .فالتناول الإستقرائي أو الإستنباطي هما المنهجان الأساسيان لقراءة المعطيات الاجتماعية لأي مجتمع.كما يدل التعدد المفهوماتي لعلم الاجتماع إلى تعدد الأزمات والظواهر المجتمعية.

سوسيولوجية الأخر في قراءة إيديولوجية الأنا :

إن البحث في مسألة النقاش الذي يفتحها حوار الأنا والأخر في الطرح السوسيولوجي هذا الأنا الذي يبحث عن خصوصيته الثقافية والحضارية من خلال محاولته لقراءة واقعه الاجتماعي وتخلفه المجالي باعتماده على الخطاب العلمي السوسيولوجي الذي نشأ في بيئة معرفية واجتماعية موضوعية غريبة عن الأنا ،وهذا الذي يعد أهم حصار لرغبة الأنا وشرعنة الخصوصية وفقدان الهوية وبالتالي السقوط في التبعية .

فلا يمكن أن نفصل معرفيا الظروف التي نشأت فيها السياقات السوسيولوجية بكل تيارتها التنظيرية وعلاقة الفعل بالفاعل وهذا ما يطرح إشكالية علاقة تساؤلية السوسيولوجيا لأفرادها وهنا نتساءل عن أي سوسيولوجية نتحدث وهل نكتفي بحسنا السوسيولوجي نحن كباحثين أم تبقى الهاجسية الإبستولوجية المنهجية أحد معيقات تقدمنا الفكري .وبالتالي تبقى نظرية تقدم الأخر تبرز بقوة وبتأثير كثير على أطروحاتنا وهكذا تصبح القاعدة الحوارية لأسئلتنا السوسيولوجية.والعودة للوقوع في إعادة هذا الصياغ التنظيري الغربي بلسان الأخر في قراءة وتحليل واقع الأنا وهنا يبرز الخطاب السوسيولوجي كخطاب خارج عن منظومة الأنا .من هذا المنظور نشأت ثقافة هيمنة الأخر على الأنا وبالتالي اغتراب الخطاب السوسيولوجي وفقدان هويته، ظل هذا الإشكال يعالج أكثر من سنة في مجمل الكتابات البحثية والملتقيات العلمية والدولية وخاصة في المجتمعات التي برز فيها الخطاب السوسيولوجي وكانت من المجتمعات السباقة في الزرع السوسيولوجي من أمثلتها مصر والجزائر .

فالخطاب السوسيولوجي مثله مثل الخطابات العلمية التي لها علاقة بالمحيط الذي نشأت وانتعشت فيه حتى أسست نموذج معرفي يحقق الهدف المنشود وهو تحديد معالم الأنساق الثقافية والاجتماعية وبلورتها في أطر فكرية ونظرية .إذن من غير الممكن الفصل بين الإطار والسياق الإجتماعي وبين هذه التيارات الفكرية التي قدمت لنا نماذج معرفية لفهم الأخر وخطابه وممارساته.وهنا نتساءل عن علاقة المجتمع بأفراده الذي نشأ في مجتمع أوربي رأسمالي بأنظمته أم خطاب متذبذب متماهي بين ثقافة الأخر ومتطلعاته ليكسب أو ينتج لنا في الأخير خطابا مشوشا دون أية جدارة علمية ومعرفية تأسيسية إنتاجية وإحداث القاعدة التغيرية وهي الوصول لإنتاج سوسويولوجي يؤسس الفضاء المعرفي والسياق الاجتماعي الخاص بنا .كل هذه الإشكاليات سنحاول تلمسها ومحاولة الاقتراب منها بغية لمس جوهر أحد الأسباب في عدم تقدم علم الاجتماع في الجزائر مع عدم إمكانية الوصول لنمط معرفي يؤسس لنا الحالة الاجتماعية مع تفسير ظواهر التي تطرح في رهانات المنظومة النسقية .لماذا لم توظف الأزمات المجتمعية في إنتاج القاعدة السوسيولوجية ومن هنا تطرح مسألة ارتباك رجال السوسيولوجيا كأولى قضايا هذا الطرح .

1 السوسيولوجيا ومشروع المجتمع :

إذن انطلقنا من مسألة تأصيلية لعلم الاجتماع وإرجاعه إلى الظروف الغير سوية وطابع الفوضى التي عاشتها أوربا على حد تعبير مؤسسها **دوركايم** فهذا يعود بنا إلى أزمة فكرية عاشتها هذه المجتمعات وبالتالي فرضت عليها تلك الحتمية الاجتماعية تفسير وتحليل الواقع وفق آلية منهجية وقاعدة معرفية أسست فيما يسمى بعلم الاجتماع أو السوسيولوجيا ,إذن السوسيولوجيا من هذا المنطلق هي دراسة الحالة الاجتماعية للبشر سواء في مجموعات أو مجتمعات كما تعرف على أنها دراسة التفاعلات الاجتماعية.وهو

بهذا اعتبر توجه أكاديمي جديدا تطور في القرن التاسع عشر .إلا أن المتتبع للمسار التاريخي العلمي نجد أن هذا العلم أسس على يد العلامة إبن خلدون الذي حاول ربط وفهم السلطة في الأنساق المغربية ليكتشف لنا عن البنية الثقافية لأفراد السلطة الحاكمة .لكن هذا المشروع التاريخي كان الفضل في اكتشافه إلى أوربا (03) وهذا يمكننا من الحديث عن علاقة الوسط بين العرب والغرب في اكتشاف هذا العلم وهذا ما أدى إلى التلاحم الفكري في قراءة الأخر .

إذن هذه الأطروحة تمكننا من قول أن العرب هم من تعرفوا على هذه السوسيولوجيا وبالخصوص الدوركايمية التي هيمنت على الأطروحات والسوسيولوجيين العرب ومن الأمثلة على ذلك أطروحة منصور فهمي أول متحصل على دكتوراه علم الإجتماع من إشراف ليفي برول كما تم ترجمة أعمال دوركايم من أمثلتها قواعد المنهج في علم الاجتماع سنة 1950.لكن رغم هذه الفترات والتراكمات المعرفية، لماذا لم نشهد سوسيولوجيا أم أن مسألة السوسيولوجيا تبقى مرهونة بفكرة فشل مشروع المجتمع وبمسألة تمثلات الإيديولوجيين لهذا العلم وهل يعتبر ضمن أولويات الأطروحات الأكاديمية التي تنسق مع حاجات المجتمع أم أنه تخصص مثل التخصصات الأكاديمية له وظيفة خارج عن نطاق مجتمعي .

إن السوسيولوجيا تتميز بالحقل أو المجال الذي تشتغل عليه ،فالجزائر كمجتمع يمثل فردانيته السوسيولوجية ومفاهيم سوسيولوجية خاصة به مستقلة مقارنة بجملة الحقول المنتجة في المجتمعات الأخرى وذلك راجع لوضعيتها .وهذا ما يجعلنا نحقق ونساءل مفهوماتيا المعارف المنتجة والممكنة لعلم الاجتماع في الجزائر والتي على أساسها أسست لنا القاعدة الإنتاجية المعرفية للمجتمع الجزائري لكن هذا المعنى يجعلنا نطرح عدم إمكانية تحليل المجتمع الجزائري وإمكانية إنتاجية قاعدة مفاهيمية حول موضوع يوازي المعارف السوسيولوجية والأنثروبولوجية وهذا من منطلق احترافية أعمال بورديو التي اعتبرت وانفردت بسوسيولوجية جديدة .

إن السؤال الجوهري الذي يطرح نفسه هو ليس التساؤل المقرر حول دور الباحث الاجتماعي أو المفكر فلا نعرف المعالجة الخطابية فكلتا التوجهين (علم الاجتماع والسياسة) لديهما هويتهما لكن في مجتمعنا الجزائري تجعلنا ننتظر أية معاناة وأية نهاية.فالخطاب هنا خطاب معقد نظرا لما يطرحه من وضعيات فالوضعية السياسية كانت بحاجة لجملة من الدراسات السوسيولوجية ولعل هذا أحد ما دعى لظهور مؤشرات فعلية سياسية وثقافية اجتماعية في الحقل المعرفي .

إن الثورة الجزائرية وظهور خطاب الأزمة الذي قام بتحليل السلطة وعناصرها وفق المنظور السوسيولوجي ،فالباحث في علم الاجتماع دائما يتجاوز الإيديولوجيا وهو بهذا يطرح الجانب النقدي للسوسيولوجيا وهذا ما يترجم في أبحاثه الموجهة برؤية ممنهجة لكن هذه العملية ليست مطروحة دائما فمعظم المعالجات التي نشهدها اليوم بين الاجتماعي والسياسي تدخل في عدة مفارقات وتحتاج لرؤية واضحة ولعل أطروحة تفسير السياسي لدينا نحن كباحثين أدت إلى تأزم الوضع أكثر نظرا لعدم وجود إيديولوجية واضحة .وهذا ما لم يساهم في توجهنا لمقاربة معيارية تطرح الوضعية المثالية للمجتمع الجزائري .

إذن السوسيولوجيا في الجزائر أقحمت في المجال السياسي، لكن دون النظرة السوسييولوجية الممنهجة والنقدية التي تعتبر ضمن العلوم النقدية والتأويلية التاريخية والإمبريقية التحليلية.فمعظم تحليلاتنا انصبت في

المجال الماركسي الذي يركز على العلاقات بين الطبقات الاجتماعية سواء على المستوى الاقتصادي أو على مستوى تحليل المنظومة التربوية بالرغم من وجود عدة تناقضات لهذا الطرح .فانزلاق السوسيولوجي لفكر غربي أدى لإعادة النظر في إعادة فهم الواقع وذلك بأجندة بحثية مستقبلية ،ولعل قراءة التراث أحد الرهانات لإمكانية الوصول لسوسيولوجية ذات أصل عربي محلي .لكن هذا الرهان دفع به إلى التقيد بجملة من الشروط وهو نقد العقل كجزء أساسي للوصول للعقلانية النهضوية.(قراءة التراث) بآليات العلوم الإنسانية والاجتماعية وهذه أهم مرحلة يمر بها الباحث في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية .

أ _التجربة السوسويولوجية في الجزائر :

إن التجربة الممارساتية للسوسيولوجيا في الجزائر لم تكن إلا في مرحلة متأخرة فصحيح أن الفرنسيين من ضباط وموظفين ورجال الكنيسة قد قاموا منذ عهد الاحتلال بدراسات كثيرة وأكثر من ذلك فإن السلطات الفرنسية كانت قد أمرت بإجراء بحث شامل .ربما على غرار ما جرى في مصر أثناء الحملة النابولية فهي تمثل رصيدا هاما لمعطيات ومعلومات لا غنى عنها في فهم حقبة تاريخية وقد ارتقت هذه الأبحاث إلى مستويات عليا المونرغرافيات التي أنجزت حول المناطق البربرية وبحيث وظفت في أعمال دوركايم في مؤلفه تقسيم العمل الاجتماعي(04) فلقد استهدفت الدراسات السوسيولوجية الكولونيالية في شمال إفريقيا والمجتمعات المغاربية لحظات مبكرة من التاريخ .فالإرث السوسيولوجي يكشف لنا الإرهاصات السوسيولوجية في مهد الأطماع الدول الأوربية وخاصة من طرف الاستعمار الفرنسي الذي حاول رصد مجمل الظواهر الاجتماعية وعلى جميع المستويات الثقافية والروابط الأسرية والقبلية.كما كان الاهتمام منصبا على السياق الديني للمجتمع الجزائري إذن كل هذا ساعد في التراكم الكمي والنوعي للطريق نحو السوسيولوجيا .

وهكذا استمرت هذه البدايات التمهيدية للسوسيولوجية وخاصة بعد الأبحاث الميدانية التي قام بها **بورديو Bourdieu** إلا أن هذه الأعمال التي لم تستحق الاهتمام في نهاية الستينات أي بعد مرحلة الاستقلال .إذن كان الاستعمار الأوربي تأثير على السوسيولوجيا في عالمنا العربي ولكنه كان تقليدا للنظام الأكاديمي الغربي وبالتالي فترة بداية علم الاجتماع اتسمت بتطبيق قوالب فكرية ونظرية نمطية من المجتمعات الغربية ومبنية على التراث الغربي(05).

إن من جملة التحديات التي واجهتها السوسيولوجيا هي كون أننا أفراد اجتماعيين حيث نعرف تماما ما يدور من حولنا في مجتمعاتنا وهذا نتيجة التغيرات التي يشهدها المجتمع إذن نحن أمام تحديات تفرض علينا وبإلحاح مادام أن تكويننا السوسيولوجي يمهد لنا الطريق في الملاحظات لتلك الظواهر التي أفرزها هذا التغير لكن هذه الوقفة التأملية والملاحظاتية لا يمكن الاكتفاء بها دون الغوص والتعمق النظري مع التوغل في الميدان المراد معالجته .

إذن أصبح المجال الذي نعيش فيه بمثابة المادة الدسمة للبحوث الاجتماعية وأمام مساءلة لهذه المعطيات بأليات سوسيولوجية. وهكذا يصرح Oberti Mendras أن الميدان هو مصدر لكل خيال سوسيولوجي فعن طريق الاحتكاك بالواقع يكتشف الباحث السوسيولوجي نماذج جديدة تثري فيما بعد النظرية السوسيولوجية(06).ورغم الفضاءات التي تستفز الباحث السوسيولوجي وخصوصا في مجتمعنا الجزائري

الذي ظل يعيش وفق ثنائية التقليد والحداثة التي برزت بشكل قوي في مؤسساته وفي ممارسة الفاعلين .إلا أن الطرح السوسيولوجي ظل محصورا في الطرح الماركسي والذي ارتبط بالنظام الاقتصادي الاشتراكي كنموذج لمشروع المجتمع .وهذا ما انعكس على تحليلاته وربط مؤسساته بعملية التنمية .

وكما تميزت بتعاقدية علم الاجتماع وعالم الاجتماع ،فيما يعرف بالخطاب الإيديولوجي الشعبوي والذي تميز بالدور الفاعل في تقديم التزامات للجماهير الشعبية من تحريرها من الرابط الاستعماري والتبعي، وهنا قد نلمس الجانب الإيجابي والفعال لعلم الاجتماع. فالسوسيولوجيا قد عرفت عدة منعطفات وانتقالات حيث لم ينظر إليها كعلم مستقل بل كإيديولوجية وضمن العلوم الكولونيالية ولعل هذه أحد الأسباب وراء تأخرها في مجتمعنا.وبالتالي أخذت السوسيولوجيا كعلم اجتماعي ذو رأسين رأس رأسمالي ورأس إشتراكي وبدأت تأخذ طريقها إلى التبلور والتمايز والتمييز سواء على المستوى النظري أو التطبيقي (07.) إذن فهم الوضعية الاجتماعية بتلك الآليات السوسيولوجية ارتبطت بمشروع المجتمع الذي يسعى النظام الوصول إليه.إن الأزمة التي وقع فيها الطرح السوسيولوجي في الجزائر ليست في كون اختيار أو التبني النظري الماركسي أو الرأسمالي في تقديم تفسيرات لظواهره بقدر الخصوصية وإشكالية علاقة التاريخ بتاريخ المنظومة العالمية "ففهم علم الاجتماع في الوطن العربي بحاجة إلى تحليل تاريخي ومعاصر لهذه الأوضاع وضرورة ربطها بالإطار المجتمعي الذي أحاط بها استنادا إلى منطلقات تقود عمليات التحليل والفهم وإلا فقد الباحث طريقه وأحاط به عدم وضوح الرؤية "(08).فالإشكالية تكمن وراء عدم فهم المسار التاريخي لتلك المجتمعات ففهم المعطيات التاريخية بمنهجية سوسيولوجية أصبحت حتمية تفرضها علينا أحد الحلول للخروج من أزمة السوسيولوجيا الراهنة.فالتشويه الذي عرفه البناء الاجتماعي مع التناقض في المنظومة الاقتصادية هل هي رأسمالية من خلال سياسة التصنيع والإنتاجية أم اشتراكية في إصلاحاتها الثورية الزراعية .فهذه التناقضية لم توظف إيجابياتها ولم تنعكس على تطور علم الاجتماع. حيث ارتبطت تحليلات المؤسسات الصناعية بازدواجية الخطاب السوسيولوجي وبالتالي أزمة تكييف المفاهيم أصبحت من العمليات المستحيلة .فالمفاهيم ينبغي أن تستمد من تراثنا العربي وتختبر على واقعنا الاجتماعي في الماضي والحاضر (09).فظهرت معالم الخطاب السوسيولوجي بين تيارين تيار ماركسي وتيار ليبيرالي يطرح قوالب فكرية مغايرة للمنظومة القيمية الجزائرية وبالتالي يبقى التوجه نحو استخدام مقاربة مابين الفرعي يفرض أكثر نفسه في دراسات الإشكاليات الاجتماعية .ولعل معالجة هذه الفروعات وفق نظريات معرفية نشأت في سياقات مخالفة للأنماط هي التي سببت في أزمة السوسيولوجيا بالجزائر .فلا يمكن التقريب بين المجالين لا من حيث الحقبة التاريخية ولا من حيث الأنساق القيمية التي تطرحها . وهذا ما يطرح عدم إمكانية دراسة أو معالجة الإشكاليات ضمن الإطار العام دون التطرق لفروعه فمن غير الممكن معالجة قضية المشاكل المدرسية دون التطرق للإطار أو البناء الأسري ، وهذا ما جعل الباحثين يقعوا في إشكالية الإسقاط الآلي للبناء النظري على المستوى الميداني وهو ما يجعل الباحث يستغني عن اللبنة السوسيولوجية وهي الواقعة الاجتماعية فيما تحول من سوسيولوجية واقعية إلى التنظير لفلسفة اجتماعية بمعطيات غائبة أو مجهولة.إن مسألة التجربة السوسيولوجية في الجزائر لم تعرف ضمن النطاق العام أي على مستوى الاهتمام النظامي بقدر ما أصبح الخطاب السوسيولوجي مختزل ومقدم لنخبة المجتمع وهذا يعود لمسألة عدم معرفة ما تطرحه

أهمية البحوث الاجتماعية في دراسة التخطيطات الاجتماعية والاقتصادية .مع إمكانية التنبؤ التي تطرحها تلك البحوث الاجتماعية والتي تعد ضمن أهداف البحث العلمي .لكن ما يلاحظ على البحث السوسيولوجي أنه ما زال مهيمن عليه الخطاب النخبوي الذي يحافظ على النظام دون تقديم أية ضروبات للبنية السياسية وبالتالي تحالف السوسيولوجي مع رجل الإيديولوجيا قد أعطى صورة انعكاسية للمواطن حتى أصبح يقدم لنا في إجاباته المقدمة في شكل تقنيات الاستمارة أو المقابلة بنوع من التحفظ.فمثل هذه الأساليب قد أضعفت مستوى الإنتاجي للخطاب السوسيولوجي برغم الظواهر التي يشهدها والتي تعد بمثابة الأرضية السوسيولوجية وإمكانية معالجة الرهانات التي تطرحها تلك المجتمعات خاصة بعد الحراك العربي الذي شهدته لكن للأسف كل هذا تم تجنيده في خطابات سياسية وتوظيفه لخدمة النظام وهذا يعكس تخلف المجتمع بمختلف مقايسه وعدم التوافق بين ما يطرحه هذا العلم العقلاني في آلياته وأطروحاته مع توظيفه لفكر مجتمعي متناقض في مشاريعه .لكن ما يستدعي الذكر هو محاولة تقديم أطروحات سوسيولوجية من طرف الباحثين لمسألة الحراك العربي بقيت خلف الستار دون إظهار أية اهتمامات وإبراز أي مشاريع بحثية لقولبتها في أطر نظرية ولعل هذا يستوقفنا أن مسألة تدريس السوسيولوجيا في جامعتنا اختزلت في مجال ممارستها كمهنة مثلها مثل بقية التخصصات ولم توظف تلك البحوث لتقديم قراءات لتلك المؤسسات وهذا ما يفسره دائرة الفراغ التي تعيشها السوسيولوجيا من ناحية عدم تمكنها من تحليل لتلك المعطيات الكمية التي أفرزتها حركة التغير الاجتماعي أو ما اصطلح عليها الثورات العربية وما أنتجته من تحولات على مستوى مؤسساته وخطاباته .وهذا ما يؤكد القطيعة الأكيدة للسوسيولوجيا والمجتمع .ويوضح لنا تطورية المجتمع دون انتظار التحليلات السوسيولوجية.فنحن مطالبون اليوم كباحثين من إعادة اختبار لتلك المحصلات الفكرية والتصورات النظرية التي أسقطناها على واقعنا ،أي إعادة تفكيك معرفي بهدف تطوير واقعنا المعرفي والسوسيولوجي .

إن الانشغال السوسيولوجي في الجزائر ارتبط ارتباطا وثيقا بمشروعية المجتمع وبالتالي فشل الرهانات التي قدمها المشروع المجتمعي أدى إلى حتمية فشل السوسيولوجيا .لكن ومع هذا الطرح الرياضي يمكن أن نطرح مدى امتثالية الرهانات السوسيولوجية التي جندت لمعالجة المجتمع وأنساقه .وكيف درست تلك السوسيولوجيا ومن هم رجالها .حيث يذهب الباحث عنصر **العياشي** لتلخيص أزمة غياب علم الاجتماع لأربع عوامل :

1_ السيطرة السياسية على ماهو علمي وهنا يحافظ الباحث على حس الخطاب الرسمي الذي يلعب فيه دور مرجع صدى الصوت .

2_ عدوانية المجتمع وانغلاقه وهو حاجز يعيق التطور.

3_ضعف منظومة التكوين وضحالتها وسطحيتها فلا زلنا نخلط بين التيارات والمقاربات الفكرية وعدم التحكم في المفاهيم.

4_إهمال البحث العلمي وتهميشه والذي يعتبر حجر الأساس.(10).

تدريس السوسيولوجيا في الجزائر :

دائما وفي إطار تحديد الإدراك المعرفي للممارسة السوسيولوجية يأتي عنصر تدريس السوسيولوجيا كجزء أساسي لمعرفة مؤشرات وملامح السوسيولوجية الجزائرية.وأحد العوامل التي بإمكانها تفسير أزمة التنظير

للقضايا السوسيولوجيا العربية ،تبقى المعرفة والقاعدة الفكرية التي تسعى المناهج ترسيخها لدى فاعليها ضمن أولويات مكونات الخطاب السوسيولوجي .إن تدريس السوسيولوجيا قد عرف إصلاحات ،إصلاحات التعليم العالي وفق نطاق تدريس هذا التخصص مع تجنيده ضمن الخطاب الاشتراكي وهذا ما نجم عنه مشروع تعريب العلوم الاجتماعية وبالتالي أسر الخطاب وأصبح مؤدلج ومسيس لخدمة التنمية.ومختلف خطاباته تندرج ضمن علم الاجتماع الريفي وعلم الاجتماع الصناعي أي خدمة الثورة الزراعية والتسيير الاشتراكي لتلك المؤسسات ولعل هذه الأطروحات أدخلت السوسيولوجين في بؤرة معرفية وزيادة الفجوة بين سوسيولوجية الأخر الذي إنتقل للحداثة الفكرية وسوسيولوجية الأنا المنغمس في أطروحات الأخر وإسقاطها بآلية تبعية نموذجية.هذا النوع من الانشغال للسوسيولوجيا أدى إلى انتحارها في شكل خلط فكري ومفاهيمي دون حمل أية رهانات مستقبلية . لكن بعد فشل المشروع المجتمعي واعتماد سياسة التفتح على المجتمع بمختلف فروعه وميادينه ،وسياسة الإصلاحات التي وسعت وفتحت فروع السوسيولوجيا مع الاستقلالية البيداغوجية لهذا العلم ،إلا أننا نلاحظ تدهور رغم هذه الاستقلالية لكن هذا يعود لربما لحاجة المجتمع وتمثله لهذا العلم وأهميته فلم يعد الاهتمام بنطاق واسع للسوسيولوجيا ،حيث أرجعت مسألة الاهتمام للعلوم التكنولوجيا بحجة الاهتمام بالتنمية ونقص الإطارات العلمية والفكرية ،وهذا ما صرح كخطاب إيديولوجي وما أدمج في سياسة الإصلاحات التعليمية الأخيرة .إذن مسألة تطور السوسيولوجيا في الجزائر تظل محل رهان إيديولوجي أكثر من مسألة نقص الفاعلين السوسيولوجين .بالرغم من البيئة الإسفنجية التي بإمكانها امتصاص الأزمات الفكرية والمعرفية بمنهجية سوسيولوجية ولعل أطروحة **أرون** حول أن أهم ما تفتقده السوسيولوجية الفرنسية هم علماء الإجتماع .لكن ما صرح به الـ باحث **غريد** هو أن أشد ما تفتقده نحن العرب هو علم الاجتماع .

السوسيولوجيا من سؤال المنهج إلى سؤال الفكر :

في بداية الأمر ينبغي أن نتساءل هل استطاعت السوسيولوجيا من المساهمة في تأصيل أسئلتنا الاجتماعية مع مراعاة البنية العميقة لهذه التحولات ما الذي منحته هذه المناهج من أدوات وآليات في قراءة وتفكيك هذه التحولات .وخصوصا إذا عرفنا أن البحث "في الظواهر الإنسانية بالآليات والوسائل العلمية في عالمنا العربي لم ينشأ مثلما حدث في التاريخ الغربي بفعل عملية تاريخية ذاتية موصولة بصيرورة وبالتالي النظر إلى هذه الظواهر ضمن سياق عملية تقليد أفرزتها متغيرات خارجية وافدة (11) فالمعالجة السوسيولوجية مرهونة برياح التأورب المنهجي والألياتي ،ولعل هذا ما انعكس على بحوثنا وأطروحاتنا في التناول المنهجي والنظري في تحليلاتنا للوقائع الاجتماعية . فعملية التفسير من بين التحديات الهامة التي تواجه الباحثين خلال الطرح السوسيولوجي . وهذا ما استدعى اهتمام **جورج جورفيتش** Georges Gurvitch حيث تطرق لذلك في كتابه الوجهة الراهنة لعلم الاجتماع حيث انتقد فيه بعض الممارسات العلمية التي لم تستفد بالقدر الجيد من أعمال رواد علم الإجتماع من أمثال مارسال موس و Georges Balandier .كما حصر جورفيتش إلى الأخطار الناجمة عن أزمة التفسير في علم الاجتماع حيث حصرها في ثلاث جوانب: يتعلق الأول منها بخطر انفجار السوسيولوجيا إلى علوم متفرقة ومستقلة ويمثل الخطر الثاني في تحولها إما علم ثانوي أو إضافي أو تحولها وحصرها إلى علم تطبيقي والخطر الثالث في النزعة التكنوقراطية للعلم كما

يتجلى ذلك في أمريكا بوجه خاص حيث حول هذا العلم في خدمة النسق الأمريكي . (12).كما تكمن جملة التحديات التي تواجه الباحث في حقل علم الاجتماع هو التعارض بين الفهم والتفسير حيث لم يراعى التكامل بين المنهجين بحيث لا يمكن تحقيق الفهم دون تفسير.فالفهم قد أصبح واقعا معترفا به بحيث يهدف إلى تجاوز التفسير السببي للفعل الاجتماعي الذي يضفيه الفاعلون . لكن في البحث السوسيولوجي لكي نصل لعملية الفهم الصحيح للظاهرة الاجتماعية علينا أن نفحص الظاهرة جيد وهذا دور الباحث ،فالملاحظة تبقى المرحلة الأولى المنهجية التي نرصد من خلالها المعطيات ،لكن في إطار المساهمة السوسيولوجية تقتضي التموضع خارج المجتمع وهذا بغية الوصول لتحليل وتفسيرات الفرضيات التي تقدمها الإشكالات والوصول لنتائج وفهم سلوكات الفاعلين فالباحث هنا لا يقتصر على الملاحظة وتسجيل الواقعة وإنما يكون مشارك فيها وهنا تدخل في إطار الذاتية .وهذه أحد العراقيل التي تواجه الباحث فلا يمكن الوصول للموضوعية التي تعد أحد شروط البحث العلمي بسهولة.

أما الخطوة الثانية فيبقى النقد هو أحد الأسباب التي هدفها إبراز معالم نظرية خفية سابقا وهو بهذا نؤكد على وظيفة النقد في تحليل الواقعة .فالنظريات الغربية كانت مساهمتها للوصول لتحليلات سوسيولوجية نابعة من نقد لبنائها الاجتماعي والثقافي .لكن تبقى الآلية النقدية شبه غائبة في بحوثنا المحلية ولعل هذا الوضع يعود إلى عدم إمكانية فهم البناء الاجتماعي للوصول لنقده بامتياز.فالنقد الذي وظف في قراءة التراث أدى لطرح الأفكار وفهم هذا التراث من منطلقات غريبة عن مجتمعنا وهذا ما يتجسد في البحوث التي قام بها كل من **أركون والجابري** في مسألة قراءة التراث بآلية العلوم الإنسانية والاجتماعية حيث تم عرض الفكر بفكر مغاير فعندما نتحدث عن العقلانية الدينية في المجتمعات الغربية ليست هي نفسها في مجتمعنا ،وهذا ما أقحمنا في التبعية الفكرية فكلا البناءين مختلفين .وهنا ينبغي أن نلتمس أن مسألة الحذر المنهجي هي من المسائل التي يغامر عليها الباحث في طرحه.ولعل أن الاقتراب الفكري وتبيئة المفاهيم تصبح الهاجس الإبستيمولوجي الذي يهدد مكانة البحث السوسيولوجي في مجتمعنا.

ولمعرفة الإطار الذي تعالج فيه السوسيولوجيا اليوم أخذنا مذكرات الماستر لسنة 2011 في علم الاجتماع بفروعه المفتوحة علم الاجتماع التربوي وعلم الاجتماع الديني بجامعة معسكر أنموذجا للبحث .حيث تمثلت في 33 مذكرة .علم الاجتماع التربية 18 مذكرة أي بنسبة 54.45 % وعلم الإجتماع الدين 15 مذكرة أي بنسبة 45.45% .

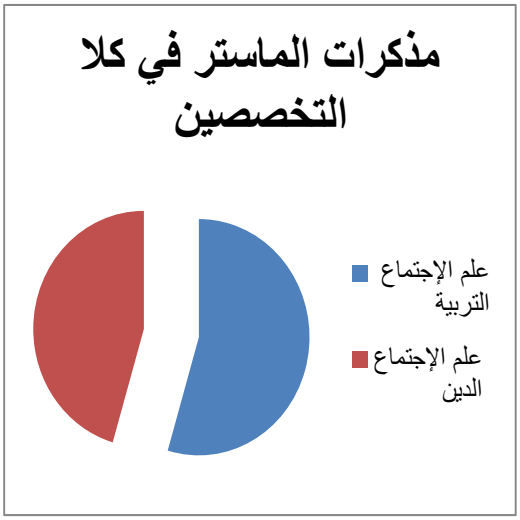

فنلاحظ من خلال الشكل أعلاه أن الأكبر نسبة للمواضيع التي أخذت نصيب من المعالجة السوسيولوجية للدين وذلك لربما راجع للظروف التي نشهدها اليوم على الساحة العربية والمحلية والمتمثلة في عودة الدين في مختلف المجالات .فظهور الحركات الإسلامية وعودتها للميدان قد ساهم في اهتمام الباحثين وذلك لجملة الرهانات التي طرحتها هذه الحركات سواء على المستوى السياسي أو على مستوى الخطابات الدينية مثل السلفية أو حركة الإخوان المسلمين المتجسدة في حركة حماس أو الخطاب الصوفي .من خلال ما طرحته المذكرات التي تناولت الدين ،حيث وجدنا أن جل هذه المعالجات السوسيولوجية قد اهتمت بالظواهر المحلية التي يشهدها المجتمع .أما الثانية الخاصة بعلم الإجتماع التربية فلقد اهتمت بالإصلاحات التربوية وموضوع المرأة ومسألة الحراك الاجتماعي والتقويم التربوي وتنمية الإبداع في ضوء الإصلاح التربوي.

من خلال تحليلنا لهذه المذكرات توصلنا إلى النتائج التالية :

جل الإشكالات التي طرحت في هذه الدراسات لم تعرف المستوى والمعالجة السوسيولوجية الجادة فلقد تعاملت مع الظواهر كمعطيات إجتماعية وليس محاولة لإعادة بناء الواقع ضمن تصور نظري ومنطقي يمكننا من التنبؤ الذي يميز الباحث في علم الإجتماع .كما توصلت الدراسة أيضا إلى أن الاستخدام النظري

لم يعرف جانب الحذر الإبستيمولوجي وهو المحافظة على الخصوصية المجتمعية وهو ما أدى إلى الانزلاق الفكري وفصل الجانب النظري عن الميداني.كما ركزت هذه الدراسات على الاعتماد أكثر على الوصف إنطلاقا من الإستمارة دون التأويل والتحليل الذي يربط بين المعطيات الميدانية والبناء النظري المتبنى في الدراسة .كما لفت انتباهنا من قيامنا بتحليل لهذه العينة من المذكرات أن هناك خلط مفاهيمي ومنهجي بين علم الاجتماع التربية وعلوم التربية وبين علم الاجتماع الدين وفلسفة الدين وأنثروبولوجية الدين .حيث معظم هذه المعالجات قد انساقت عن تخصصها وهذا الإشكال يعود للتكوين الذي يتلقاه الطالب ،فنلاحظ مثلا في علم الإجتماع التربية معظم المقاييس تندرج ضمن علوم التربية ونجد المقاييس التي تمنهج التخصص ضئيلة .

إذن يظل الطرح السوسيولوجي بعيدا كل البعد عن المعالجة السوسيولوجية المقدمة في ظل إنجاز المذكرات وخاصة في المجال النظري حيث نلاحظ طغيان المفاهيم النظرية المتبناة في الدراسة دون إيجاد لها أي سبب للطرح لا من حيث الواقع ولا من حيث النتائج المحصل عليها .وهذا راجع لعدم فهم الطالب من الأهمية لتبني مثل هذه النظريات .وهنا تغيب الممارسة السوسيولوجية التي تعني ادراك المعاني التي تتجادل فيها الأطر المعرفية مع المعطيات الاجتماعية .وهذا كله يدخل في إطار اغتراب الباحث عن واقعه .فتبني الترسانة المعرفية دون إدراك مع إجراء المعطيات الإحصائية والجانب الإغرائي التي توضحه دون القيام بالتحليل والخيال السوسيولوجي كل هذا ساهم في قتل السوسيولوجيا .وهذا ما يدفعنا مرة إعادة التساؤل عن وضعية الفعل السوسيولوجي وكيفية تجاوز محنة السوسيولوجيا اليوم .

الخاتمة:

إن البحث في أزمة السوسيولوجيا العربية وإرجاعها لعلاقة الفكر والمنهج لهو الخطاب العلمي الذي تبنى عليه معظم البحوث رهاناتها البحثية فلقد ظلت مسألة الفكر مسألة بعيدة كل البعد والاحتمال الواقعي في الطرح السوسويولوجي، فالمنهج هو أحد الأهداف والوسائل التي ظلت إحدى انشغالات الباحثين في حقل العلوم الاجتماعية وخاصة السوسيولوجيا التي تعرف على أنها العلم الممنهج بقواعده التفسيرية **الدوركايمية** أو الفهمية **الفيبيرية** .فإشكالية المنهج تطرح بشكل مباشر في تناول الظاهرة السوسيولوجية فهي التي نؤطر من خلالها ونصل للقاعدة الفكرية ونستطيع من خلالها تقديم تفسير عقلاني للواقعة الاجتماعية دون الغوص في الأطر المعرفية التي حملت البناء الذي جسد هذا المنهج .لكن هذه العملية ظلت من الرهانات المستحيلة الطرح فإشكالية تبعية المنهج أدت إلى الانزلاق الفكري والإسقاط الآلي المعرفي في قراءة الأنا ومعطياته بمنظور سوسيولوجية وأطر الأخر.وهذا ما يجعل المسؤولية تقع مرة أخرى في إحداث القطيعة الإبستيمولوجية بين فكر الأخر وتأثيراته على الأنا المتخلف والتبعي في طرحه العلمي والسوسيولوجي .فالتبعية المنهجية تظهر من خلال التوظيف لأساليب وتقنيات البحث العلمي في تحليلات الظواهر الاجتماعية .وهذه التبعية ساهمت في انتقال التبعية الفكرية وهذا ما يطرح إشكالية عدم ملاحظة الباحث لواقعه بامتياز أي غياب السوسيولوجي،إذن تظل مسألة أن السوسيولوجية تنظر وتتطلع للأخر هي القاعدة النسبية والمحورية في خطابتنا الراهنة .وهذا يلزم علينا تدريب ذواتنا على كيفية التفكير على حد تعبير

الفيلسوف المفكر العظيم كانط " فكر بنفسك واعلم بنفسك أني لا أعلمك فلسفة الفلاسفة ولكني أعلمك كيف تتفلسف" حتى وإن كان المجال في الفلسفة فلا يمنع أن يكون المبدأ الأساسي للطرح السوسيولوجي .

الهوامش :

1 زايد أحمد (1981) علم الاجتماع والاتجاهات الكلاسيكية والنقدية .دار المعارف مصر ص"33 .

02_ Thomas Gay (2004) indispensable de la sociologie .collection dirigée par Annie Eichmann .France .

03 دوركايم(1988) ترجمة محمود قاسم .قواعد المنهج في علم الإجتماع دار النهضة المصرية .ص56 .

04 R Aron la société américaine et sa sociologie : cahiers internationaux de sociologie Nouvelle série ; T ; X X V I.

05_ مصطفى ناجي (1987) علم الإجتماع في الوطن العربي بين المحلية والدولية ،مجلة العلوم الإجتماعية العدد 02 ص 180.

06_Henri Mandras et Marco Oberti le sociologue et son terrain : trente recherches exemplaires ; paris : Armand colin 2000 .P15 .

07_محمد أحمد الزغبي ,(2008) علم الاجتماع بعض الإشكالات النظرية والتطبيقية .دمشق للدراسات والحقوق المدنية .

08_ عبد الباسط عبد المعطي (1998) اتجاهات نظرية في علم الإجتماع .سلسلة عالم المعرفة العدد 44 المجلس الوطني للثقافة والفنون .الكويت .

09_ الواثق محمد كمير (1989) 04_ الدعو ة إلى علم الإجتماع عربي .مجلة العلوم الإجتماعية العدد 02 المجلد 17 جامعة الكويت .

10_ سليمان الرياشي و آخرون(1996)*"الأزمة الجزائرية (الخلفيات السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية)*"،ط 2 ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية (سلسلة كتب المستقبل العربي) . ص.290

11_أحمد خليفة وآخرون (1984) إشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي،مصر: دار التنوير.
12 _ توم بوتومور تر.محمد الجوهري وآخرون ،(1981) :تمهيد في علم الاجتماع ،ط.دار المعارف مصر .